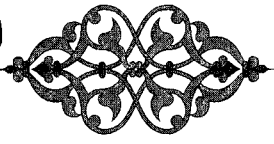

التعريف بابن القطان

لقد اشتهر ابن القطان عند رجال الحديث والفقه من خلال مؤلفاته القيِّمة، التي برهن فيها على قدرته العلمية الواسعة، واطِّلاعه الكبير، فكان في كثير ممَّا انتهى إليه من الآراء والأحكام حجةً.

ولم يظفر بهذا المستوى العلميِّ الذي انتهى إليه ابن القطان من حيث سعة اطلاعه على الحديث: رواية ودراية، إلا نزر قليل في كلِّ طبقة من طبقات الحفّاظ المحدِّثين، كشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ)، ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ)، وعلي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)، ومحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، ومسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، وأبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ)... وغيرهم.

وابن القطان كهؤلاء برز بجهوده المباركة في جميع علوم الحديث، فكان على خبرة شاملة بعلل الحديث، ودراية واسعة بفقهه، فحاز الرتبة المرموقة بين جهابذة الحفّاظ، وكَثُرت النقول عنه في كتب الحديث والرجال من كتاب «**بيان الوهم والإيهام**»، وكتاب «**إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر**».

وإذا رجعنا مثلاً إلى كتاب «نصب الراية لأحاديث الهداية» للحافظ جمال الدين الزيلعي (ت ٧٦٢هـ) سنجده مملوءاً بالقول عن كتب ابن القطان، وكذلك كتاب «التلخيص الحبير» للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، و«ميزان

الاعتدال في نقد الرجال» للحافظ الذهبي (ت ٧٤٣هـ)، وغيرها من كتب الحديث والفقه، كـ«نيل الأوطار» للشوكاني، و«مواهب الجليل لشرح مختصر خليل» للحطَّاب (ت ٩٥٤هـ)، و«التاج الإكليل لمختصر خليل» لمحمد بن يوسف المعروف بالمواق (ت ٨٩٧هـ)، وغيرها.

فمَن هو ابن القطان هذا؟.

أولاً: اسمه ونسبه:

سجَّلتْ جميع الكتب التي ترجمت له أن اسمه: علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن محمد بن إبراهيم بن خلصة بن سماحة الحميري الكتامي الأصل، الفاسي المولد والمنشأ، نزيل مراكش[١]، المعروف بابن القطان، يكنى: أبا الحسن.

وذكر ابن الزبير وابن القاضي وأحمد بابا ـ من الذين ترجموا له ـ أن أصل أجداده من قرطبة بالأندلس[٢]، وابن مسدي ذكر أنه «مصري الأصل، مراكشي الدار»[٣].

ثانياً: مولده ووفاته:

ذكر مَن ترجم له أنه وُلد بفاس فجر عيد الأضحى سنة اثنتين وستين وخمسمئة هجرية، وتوفي «بين العشاءين من الليلة التي أهلّ فيها هلال ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين وستمئة، ودُفن بالركن الواصل بين الصحنين

---

(١) التكملة، لابن الأبار، رقم (١٩٢٠)، ط: مدريد؛ والذيل والتكملة، لابن عبد الملك: ٩/٨، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) انظر: صلة الصلة، لابن الزبير، رقم (٢٦٨)؛ وجذوة الاقتباس، لابن القاضي، ص ٢٩٨، طبعة الحجر بفاس؛ ونيل الابتهاج، بهامش الديباج المذهّب، ص ٢٠٠، لأحمد بابا السوداني؛ والأعلام، للزركلي: ٣٣١/٤، ط: الثانية.

(٣) تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٤٠٧، نقلاً عن ابن مسدي.

الشمالي والغربي من الزنقة، لصق الجامع الأعظم بسجلماسة، وقبره معروف هناك إلى الآن»[١].

ثالثاً: نشأته وتحصيله العلمي:

نشأ ابن القطان بفاس، وبها تلقَّى علومه الأولى، ولازم العديد من شيوخها الذين كانوا يفدون عليها، أو استقروا بها، ونهل من معينهم جميع العلوم واستكثر من علم الحديث، فأجاده رواية ودراية، واشتهر أمره فيه حتى صار حجة فيما ينتهي إليه من الأحكام والآراء.

وكان لنضوج الحركة العلمية في المغرب على عهد الموحدين أثر كبير على ابن القطان في تحصيله العلمي، حيث صادف تحصيله العلمي في فاس أولاً، ثم في مراكش ثانياً بعد أن رحل إليها، اهتمام الدولة الموحدية بعلم الحديث اهتماماً كبيراً، إذ جلبوا لتحقيق هذا الهدف كل من اشتهر أمره من العلماء، في الحديث والمناظرة من الأندلس والمغرب، «حتى اجتمع في فاس: علم القيروان، وعلم قرطبة»[٢] «وكان ملوك المغرب يكرمون الوافدين عليهم من العلماء ويجلُّونهم ويفتخرون بهم».

وقال صاحب «القرطاس» في عبد المؤمن بن علي: «وكان محبّاً في أهل العلم والأدب، مقرباً لهم، متشوقاً لوفادتهم، منفقاً لبضاعتهم»[٣].

ويقول الأستاذ محمد المنوني:

«هذا إلى جانب ما وجد في المغرب على عهدهم من أعلام كبار من الأندلس والقيروان وغيرهما حتى اجتمع في فاس على حد تعبير «المعجب»

---

(١) الذيل والتكملة، لابن عبد الملك: ٩/٨، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) العلوم والفنون على عهد الموحدين، للأستاذ محمد المنوني، ص ١٦، ط: الثانية.

(٣) القرطاس، ص ٢٠٤.

علـم القيروان وعلم قرطبـة، وصارت مراكش هي الأخـرى عاصمة علم ثانية، الأمـر الذي له دخل كبير في تسمية غير واحد لها ببغداد المغرب، وكذا سبتة وطنجة وغير مدينة من مدن المغرب»[١].

ويقول أيضاً:

«وكـذا ازدهر الحديـث فـي هذا العـهد ازدهاراً لم يكن له مـن قبل، وقد استمـد نهضتـه من اهتمام الموحدين به اهتماماً كبيـراً، ظهر في استدعائهم للمحدثين من الأندلس وأمرهم بتدريسه إلى جانب المحدثين المغاربة»[٢].

وهكذا نلاحظ أن المغرب عرف على عهد الموحدين نهضةً علميةً عظيمةً، صادفـها ابن القطَّان في تحصيله العلمي، فاستفاد منها كثيراً.. قضى مرحلته الأولـى فـي التحصيل العلمي بفاس، ثم انتقل بعدها إلـى مراكش، مهد العلم الثانـي بعد فاس، ولربما أصبحت على عـهد الموحدين تحتل الرتبة الأولى في العلـم، لكثـرة وفـادة العلماء عليها، بسبـب إجلال الموحدين لـهم واحترامهم وإكرامهم.

وكان انتقـال ابن القطان إلى مراكش بعد تجاوزه العشرين من العمر، ولم أقف على تاريخ انتقاله إليها بالضبط، وإنما كل ما هنالك أن ابن الأبار يروي: «أن ابـن القطان روى عن أبي عبد الله بن البقار الفاسي بفاس، وتفقه بفقهه، وأجاز له جميع روايته سنة (٥٨٢هـ)»[٣].

وبالرجوع إلـى الشيوخ الذين أخذ عنهم بمراكش، نجد ابن الأبار، وكذلك ابـن عبد الملك يرويان أنه أخذ عن الحافظ أبي عبد الله بن الفخار الأندلسي

---

(١) العلوم والفنون على عهد الموحدين، للأستاذ محمد المنوني، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) التكملة: ٦٧٩/٢.

الـذي وفد إلى مراكش بطلب من المنصور سنـة ثمانين وخمسمئة، وتوفي بها سنـة تسعيـن وخمسمئة، ولازمه ملازمة طويلة.. فيفهم من هذا أن انتقاله إلى مراكش كان بعد سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة.

وقد ذكر شيخنا الدكتور إبراهيم بن الصديق في أطروحته: أن انتقاله إلى مراكش كان بين سنة (٥٨٣هـ) و(٥٨٥هـ)، وعزز هذا: بأن بعض شيوخه الذين أخذ عنهم بمراكش مات في هذا التاريخ أو بعده بقليل[١].

وعلى كُلٍّ فإن سنة انتقاله من فاس إلى مراكش بالضبط لم يذكرها الرواة المترجمـون له، لأنهم لم يتحدثوا عنه، فـي مرحلته الأولى بفاس، كما تحدثوا عنـه في مرحلتـه الثانية بمراكش، لأن فـي هذه المرحلة ظـهر نبوغه العلمي، واشتـهر أمره بيـن العامة والخاصة، وتـم اتصاله بملـوك الموحدين، وخاصة منـهم يعقـوب المنصور الموحدي الذي كان ابن القطـان «من أخص جلسائه، وقد صدر به ابن القطان شيوخه في معجم شيوخه»[٢].

والـذي يمكـن القطع به هنا هو أن انتقاله مـن فاس إلى مراكش، كان بعد أن جـاوز العشرين مـن العمر، لأن شيخه أبا عبد الله بن البقـار الفاسي أجازه جميع روايتـه بفاس سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة ـ كمـا سبق أن ذكرنا ـ وابن القطان آنذاك كان قد بلغ العشرين من العمر، لأن مولده كان سنة اثنتين وستين وخمسمئة.

ولمـا انتقل إلى مراكش لازم علماءها، ونال مـن حياضهم الكثير، واتصل بملوك الموحدين فاشتهر أمره.

ومـن العلماء الذيـن استفاد منهم ابن القطـان ـ وكان يحظى بالتكريم والإجـلال من طـرف المنصور بـن عبد المؤمن ـ الحافـظ أبو عبد الله بن

---

(١) علم العلل في المغرب، ص ١٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٨.

الفخـار المالقي، الذي استجلبه المنصور إلى مراكش ليسمع بها عليه، سنة ثمانين وخمسمئة.

وأبو عبد الله هذا، وصفه الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفّاظ»: «بالحافظ الإمام الأوحد»[١].

وقـال فيه ابـن الأبار: «كان صدراً فـي حفّاظ الحديـث، مقدماً في ذلك، معروفـاً بسرد المتون والأسانيد، مع معرفته بالرجال وحفظ الغريب، سمع منه جلّة، وحدّث عنه أئمة، واعترف له بالحفظ أهل زمانه»[٢].

ومـن الذيـن لازمـهم ابن القطـان في تحصيلـه العلمـي، وكان من علماء المغـرب النابغيـن في علوم الحديـث، أبو عبد الله محمد بن طـاهر الحسيني الشريف الصقلي الحافظ المغربي الكبير الذي قال فيه ابن عبد الملك:

«وكان راويـة للحديث، حافظاً لمتونه، بصيراً بعلله، عارفاً برجاله، مشرفاً على طبقاتهم وتواريخهم»[٣].

وبتتبـع ابن القطـان مجالس مثل هذين العالميـن الجليلين، يكون قد أخذ علـم الحديث عن أهلـه المشهورين بالحفظ والإتقان.. ولم يكن نبوغه فيه عن طريق المطالعة كما قال الحافظ الذهبي في ترجمته، بل كان نبوغه في جميع العلوم، ومنها علوم الحديث، عن طريق ملازمته للشيوخ الكبار، الذين وصفهم الحافظ الذهبي نفسه بالحفّاظ.

وقـد تعرضـ شيخنـا الدكتـور إبراهيم بـن الصديق لـهذا الموضوع في أطروحتـه، واستوفى فيه البحث تحت عنوان: «الحافظ الذهبي وابن القطان»

---

(١) تذكرة الحفّاظ: ١٣٥٥/٤.

(٢) التكملة: ٥٤٧/٢.

(٣) الإعلام بمَن حل بمراكش: ٧٩/٣، نقلاً عن: الذيل والتكملة.

وأكّد فيه بأدلة ناهضة، أن ابن القطان تلقى علوم الحديث، عن أصحاب الفن، فيكون بذلك قد «تأصل في الفن في مدرسة حديثية، تفاعل معها، كما هو شأن المحدثين في سائر الأقطار»[١]، بالإضافة إلى ما ظفر به في هذا الجانب من خلال رحلاته العلمية التي قام بها إلى إفريقية والأندلس[٢]، حيث التقى أثناءها بعلمائها فأخذ عنهم، كما ذكر ابن الأبار وابن عبد الملك في ترجمته.

وقد مكنه ذكاؤه وحدة فطنته من استغلال الحركة العلمية المباركة والاستفادة من مدرسة الحديث التي أقيم صرحها على عهد الموحدين، والتي كانت تضم كبار المحدثين والمشهورين في سعة الرواية والدراية من علماء العدوتين: المغرب والأندلس، حتى بلغ مكانة الأئمة الحفَّاظ، يحتج بأقواله في الجرح والتعديل، وبيان علل الحديث سنداً ومتناً.

رابعاً: شيوخه:

تعلَّم ابن القطان أولاً في بلده فاس، سمع الحديث فيها عن جماعة، ثم انتقل إلى مراكش ليسمع عن علمائها ومحدثيها الوافدين عليها، وقد جمع شيوخه في «برنامجه» الذي يقول عنه ابن القاضي: «وجمع برنامجاً مفيداً في مشيخته»[٣]. وقد وقف عليه ابن عبد الملك ونقل عنه شيوخه.

ولابن القطان في تحصيله العلمي مرحلتان: الأولى بفاس، والثانية بمراكش، سمع في المرحلة الأولى من شيوخ فاس ومحدثيها، وفي المرحلة الثانية من علماء مراكش وحفّاظها.

---

(١) علم العلل في المغرب: ١٩٩/١.

(٢) انظر: التكملة، لابن الأبار، رقم (١٩٢٠)، ط: مدريد؛والذيل والتكملة، لابن عبد الملك: ٩/٨، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

(٣) جذوة الاقتباس، ص ٢٩٩.

ومن هنا أرى أن أبدأ أولاً بالشيوخ الذين تلقى عنهم بفاس، ثم أتبعهم بالشيوخ الذين تلقى عنهم بمراكش سماعاً وإجازة:

١ ـ الشُّيوخ الذين تلقَّى عنهم بفاس:

• **علي بن موسى بن علي بن خلف السالمي الجياني:** يكنى: أبا الحسن بن الفرات، نزل مدينة فاس، وتولى مهمة التدريس والخطابة بجامع القرويين. ذكره ابن عبد الملك من شيوخ ابن القطان، حيث قال: «روى عنه أبو الحجاج بن محمد الأندي، وأبو الحسن ابن القطان...».

وقال فيه: «كان مقرئاً مجوِّداً محدِّثاً راوية»[(١)].

وكان هذا من شيوخ ابن القطان الأوائل، ولازمه ملازمة طويلة، كما قال ابن عبد الملك في ترجمته.

• **عبد الرحمن بن عيسى بن يوسف:** يكنى: أبا القاسم الملجوم الفاسي، اشتهر أمره في العدوتين: المغرب والأندلس، وكثر الرواة عنه، لما كان يتوفر عليه من علو السند، كما يقول ابن القاضي في «جذوة الاقتباس».

وكان متصل العناية بالرواية، ولقاء الشيوخ، والإكثار من حمل الرواية، بصيراً بالحديث، محافظاً على تقييده وضبطه.. حدّث وأخذ الناس عنه واستجازه من أقاصي البلاد رغبة فيه، وتنافساً في علو روايته، وكان أهلاً لذلك[(٢)].

وقد ذكره ابن الزبير وابن عبد الملك في شيوخ ابن القطان، توفي سنة (٦٠٤هـ).

---

(١) الذيل والتكملة: ٥ ـ ٤١٢/١.

(٢) جذوة الاقتباس، ص ٢٩٧.

• **محمد بن إبراهيم بن حزب الله:** يكنى: أبا عبد الله بن البقار، من شيوخ ابن القطان بفاس، ذكره ابن الأبار في شيوخه، وقال عنه: «وكان من أهل الفقه والحديث متحققاً بالرواية، والحديث عن رجالها، عاكفاً على التدريس، حافظاً متقناً... روى عنه أبو الحسن بن القطان وتفقّه به، فأجاز له جميع روايته سنة (٥٨٢هـ)»[١].

• **إبراهيم بن إبراهيم الأنصاري، المقري، الأشبوني:** يكنى: أبا إسحاق ابن العشاب، نزيل فاس، ذكره ابن الأبار في شيوخ ابن القطان وقال عنه: «حدّث وأقرأ وأخذ عنه، حكى أبو الحسن بن القطان أنه أجاز له جميع روايته سنة (٥٨٢هـ).. توفي سنة (٥٨٣هـ)»[٢].

• **محمد بن طاهر الحسيني الشريف الصقلي:** يكنى: أبا عبد الله، يعتبر من أجلّ شيوخ فاس وحفّاظها.. عده ابن عبد الملك في شيوخ ابن القطان؛ حيث قال: «روى عنه أبو الحسن بن القطان، وأبو عبد الله بن حصاد العجلاني، وكان راوية للحديث، حافظاً لمتونه، بصيراً بعلله، عارفاً برجاله، مشرفاً على طبقاتهم وتواريخهم، عني بهذا الشأن أتم عناية ودرسه ببلده، واستدرك على «الأحكام الكبرى» لعبد الحق أحاديث كثيرة في أكثر الكتب، رأى أن أبا محمد أغفلها، وأنها أولى بالذكر مما أورده أبو محمد في الأحكام، دل ذلك على حسن نظره، وجودة اختياره»[٣].

هذه جملة من الشيوخ الذين يرجح أن ابن القطان أخذ عنهم في مرحلته الأولى من التحصيل العلمي بفاس، ويحتمل أن يكون قد تلقى عن بعضهم بمراكش أيضاً بعد انتقالهم إليها.

---

(١) التكملة: ٢/٢٧٩.

(٢) المرجع السابق: ١/١٥٣؛ وجذوة الاقتباس، ص ٨٦.

(٣) الإعلام بمن حل بمراكش: ٣/٧٩، نقلاً عن: الذيل والتكملة.

٢ ـ أما الشُّيوخ الذين تلقَّى عنهم بمراكش فمنهم:

• **أبـو بكر بن خلف الأنصـاري القرطبـي:** والد الحافظ أبي عبد الله بن أبـي بكر بـن المـواق تلميذ ابن القطـان، وقد عده ابـن الأبار فـي شيوخ ابن القطان، وقال عنه:

«وعنـي بالحديث على جهة التفقه والتعليـل والبحث عن الأسانيد والرجال والزيـادات، ومـا يعارض أو يعاضد، ولـم يعنَ بالرواية، وقد حـدّث وسمع منه أبـو الحسن بن القطان، وحظي بخدمة السلطان بمراكش... وولي قضاء مدينة فاس، وتوفي بها وهو يتولاه في شوال سنة تسعين وخمسمئة»[(١)].

• **محمد بـن إبراهيم بـن خلـف:** يكنى: أبا عبد الله بـن الفخار المالقي الأندلسي «الحافظ الإمام الأوحد»[(٢)]. كما قال الحافظ الذهبي.

وقـال عنه ابن الأبار: «كان صدراً في الحفَّـاظ مقدماً معروفاً بِسَرْد المتون والأسانيد، مع معرفة بالرجال وحفظ للغريب، سمع منه جِلَّة، وحدّث عنه أئمة»[(٣)].

وهذا من الشيوخ الذين لازمهم ابن القطان ملازمة طويلة.

توفي بمراكش سنة خمسمئة وتسعين[(٤)].

• **يعيش بن علي بن مسـعود بن يعيش بن القديم الأنصـاري الشـلبي:** يكنى أبا البقاء، نزل بمراكش وبقي فيها مدة، ثم انتقل إلى فاس وبها توفي سنة (٦٢٦هـ)، عده ابن القاضي في «جذوة الاقتباس» من شيوخ ابن القطان، حيث قال: «حدّث عنه أبو الحسن بن القطان وأبو العباس بن البناء وأبو بكر بن عمر بن عتاب»[(٥)].

---

(١) التكملة: ٦٣٨/٢.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١٣٥٥/٤

(٣) التكملة: ٦٤٧/٢.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١٣٥٦/٤.

(٥) جذوة الاقتباس، ص ٣٥٤.

• **أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان المرسي:** «الحافظ الإمام محدث تلمسان»[١]، كما قال الحافظ الذهبي.

أخذ عن علماء الأندلس ثم رحل إلى الشرق وبقي به مدة طويلة، روى خلالها عن علماء أجلاّء؛ منهم: السّلفي، ويقال: إنه دعا له بطول العمر، وقال له: «تكون محدث المغرب إن شاء الله»[٢].

وذكر ابن الأبار رحلته إلى الشرق هذه، فقال: «وقفل من رحلته الحافلة هذه، فأخذ عنه بسبتة سنة (٥٧٤هـ)، ثم نزل تلمسان، واتخذها وطناً، وحدّث بها وألّف، ورحل الناس إليه وسمعوا منه كثيراً»[٣].

وذكره ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» وكذلك ابن الزبير في «صلة الصلة» في شيوخ ابن القطان..

وذكر ابن القاضي: أنه «قدم فاس عام أربعة وتسعين وخمسمئة، وروى عنه بها خلق كثير»[٤].

توفي بمراكش سنة (٦١٠هـ).

• **أبو الخطّاب بن واجب أحمد بن محمد بن عمر القيسي البلنسي:** وصفه ابن الأبار بقوله: «حامل راية الرواية بشرق الأندلس، وآخر المحدثين المسندين»..

وقال فيه أيضاً: «فصار لا يعدل به أحد من أهل وقته عدالة وجلالة وسعة أسمعة وعلو إسناد وصحة قول وضبط، مع عناية كاملة بصناعة الحديث وبصر

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١٣٩٤/٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) التكملة: ٥٨٨/٢.

(٤) جذوة الاقتباس، ص ١٧٢.

به، وتحقق بحمله وذكر لرجاله، وتهافت على جمع كتبه وما يتعلق بفنه، ومحافظة على اسمه ونشره، وترغيب لأهله فيه، وكانت الرحلة إليه في زمانه»[١].

توفي بمراكش سنة (٦١٤هـ).

ونقل ابن عبد الملك عن برنامج ابن القطان أنه من شيوخه.

• **أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عتاب النفزي**: «الحافظ الإمام الثقة» هكذا وصفه الحافظ الذهبي، يكنى: أبا عمر، وصفه ابن الأبار بقوله: «كان أحد الحفَّاظ؛ يسرد المتون، ويحفظ الأسانيد عن ظهر قلب لا يخل منها بشيء، موصوفاً بالدراية والرواية، يغلب عليه الورع والزهد على منهاج السلف، وله تآليف دالة على سعة حفظه»[٢].

وقال فيه ابن عبد الملك: «وكان من أكابر المحدثين الجلّة الحفّاظ المسندين للحديث، وكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوي: عمر بن عبد البر، وابن عتّاب»[٣].

استشهد في وقعة «العقاب» سنة تسع وستمئة[٤].

ذكره ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» في شيوخ ابن القطان.

• **أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقي**: يكنى: أبا القاسم، من ذرية بقي بن مخلد، وصفه ابن الأبار بأنه: «قاضي قضاة المغرب، من أهل قرطبة، ولي قضاء الجماعة بمراكش، بالإضافة إلى خطَّتي: المظالم والكتابة العليا، توفي سنة (٦١٥هـ)»[٥].

سمع منه ابن القطان مسند جده وتفسيره، ولازمه مدة طويلة. قاله ابن عبد الملك.

---

(١) التكملة: ١/١٠٧.

(٢) التكملة: ١/١٠١؛ تذكرة الحفّاظ: ٤/١٣٩٠.

(٣) الذيل والتكملة: ١ ـ ٢/٥٥٦.

(٤) تذكرة الحفّاظ: ٤/١٣٩٠.

(٥) التكملة: ١/١١٥.

• **أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي المرسي:** يكنى: أبا جعفر. قال ابن الأبار: «روى عنه جماعة من شيوخنا وكبار أصحابنا»[١].

ودخل مراكش[٢]، وعده ابن الأبار وابن عبد الملك في شيوخ ابن القطان.

توفي سنة (٥٩٩هـ).

• **أبو العباس الصيقل أحمد بن سلمة بن أحمد اللورقي الأندلسي:** سكن تلمسان؛ قال ابن الأبار: «كان من أهل العناية الكاملة للحديث، والمعرفة بصناعته، والتقدم في الضبط والإتقان»[٣].

وذكره ابن الأبار، وكذلك ابن عبد الملك في شيوخ ابن القطان.

توفي سنة (٥٩٨هـ).

هؤلاء هم الشيوخ الذين روى عنهم ابن القطان ولازمهم كثيراً، بالإضافة إلى عدد كبير من الشيوخ الذين تحمل عنهم ابن القطان عن طريق المكاتبة.. ورغم ما قام به من الرحلات إلى إفريقية والأندلس، فقد فاته اللقاء بعدد من الشيوخ ورغب في تحمُّل رواياتهم عن طريق المكاتبة.

وصورة المكاتبة: «أن يكتب الشيخ بعض حديثه لمن حضر عنده، أو لمن غاب عنه ويرسله إليه، وسواء كتبه بنفسه، أو أمر غيره أن يكتبه، ويكفي أن يعرف المكتوب له خط الشيخ، أو خط الكاتب عن الشيخ، ويشترط فيها: أن يعلم أن الكاتب ثقة»[٤].

وقد كاتب ابنَ القطان عددٌ كبيرٌ من الشيوخ؛ نذكر من بينهم:

---

(١) التكملة: ٩٣/١.

(٢) الإعلام بمن حل بمراكش: ٢٣/١.

(٣) التكملة: ٣/١.

(٤) الباعث الحثيث، ص ١٣٥، ط: محمد صبيح الثالثة؛ والتقييد والإيضاح، ص ٢٩٨؛ وشرح العلل، ص ٢١٣.

• **الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبيد الله الحجري الأندلسي:** نزيل سبتة، وبها توفي سنة (٥٩١هـ)، ذكره ابن عبد الملك وكذلك ابن الزبير في المجيزين لابن القطان.

• **أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن كوثر الغرناطي:** سمع من علماء الأندلس والمشرق ورجع إلى بلده «بعلم كثير ورواية واسعة»[١]، أخذ عنه خلق كثير.. ذكره ابن عبد الملك وابن الزبير في شيوخ ابن القطان.

• **أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الإشبيلي:** أخذ عن القاضي عياض ولازمه كثيراً؛ قال ابن الأبار: «وكان الناس يرحلون إليه للسماع منه لعلو روايته، توفي سنة (٥٨٦هـ)»[٢].

جعله ابن عبد الملك في مَن روى عنهم ابن القطان مكاتبة، وكذلك ابن الزبير.

• **أبو محمد بن عبد المنعم بن محمد الخزرجي الغرناطي المعروف بابن الفرس:** ذكره ابن عبد الملك في الشيوخ الذين روى عنهم ابن القطان سماعاً، أما ابن القاضي فقد عده في «جذوة الاقتباس» في الشيوخ الذين روى عنهم ابن القطان مكاتبة، توفي سنة (٥٩٧هـ).

فهذه جملة من الشيوخ الذين روى عنهم ابن القطان سماعاً أو مكاتبة.. كلهم كما رأينا قد بلغوا مرتبة في الحفظ والإتقان وسعة النظر، ساعدته ملكته القوية على الاستفادة منهم كثيراً.

خامساً: تلامذته والرواة عنه:

كان دور ابن القطان في تلقين طلبَة العلم في حلقاته المباركة الكبيرة التي كان يعقدها في قصر الخلافة وغيره بمراكش وغيرها، كدور كلِّ عالم

---

(١) الذيل والتكملة: ٥ ـ ١/١٧٣.

(٢) التكملة: ٢/٥٤٠، والذيل والتكملة: ٦/٢٠٣.

متبحِّـر في الرواية والدرايـة، فقد ضمَّت حلقاتُه العلميةُ عدداً كبيراً من الذين كانت لهم الرغبة في الأخذ والتحديث عنه.

وقد قال ابن الأبار عنه: «درَّس وحدث».

وقال ابن عبد الملك بعد أن ذكر عدداً من تلامذته: «في خَلْق لا يحصون كثرة أخذوا عنه بمراكش وغيرها من بلاد العدوة إلى إفريقية، وبالأندلس».

وابـن عبد الملك هذا يُعد من تلامذة تلامذتـه، يقول ابن عبد الملك وهو يعـد شيوخه الذين رووا عن ابن القطان: «ومـن شيوخنا الرواة عنه سوى ابنه أبي محمد: أبو الحسن الكفيف، وأبو زيد بن القاسم الطراز، وأبو عبد الله بن الطـراوة، وأبـو عبـد الله المدعـو بالشريف، وأبو علـي المقاري، وأبـو القاسم العرفي، والمطماطي، وأبو محمد عبد الواحد بن مخلوف بن موسى المشّاط».

ومن أشهر تلامذة ابن القطان:

• **ابناه: أبـو محمـد حسـن، وأبو عبـد الله الحسيـن:** وكان أبوهما شديد العناية بهما، يستجيز لهما المحدثين «ويرغب في أن يؤلفوا لهما كتب الدراسة والتلقين»[١].

ومـن الذين استجابـوا لرغبة ابن القطان في التأليـف لولديه أبو عبد الله التجيبـي الذي ألّف لهما كتاب «التلقيـن»، وقد أكَّد شيخنا الدكتور إبراهيم بن الصديـق فـي رسالته «علم العلل في المغـرب» أن كتاب «التلقين» هذا، هو من تأليف أبي عبد الله التجيبي، وليس من تأليف عبد الحق الإشبيلي، كما ذكر ابن عبد الملك في ترجمة ابن القطان، واعتبر ذلك وهماً من ابن عبد الملك[٢].

وقـد حظي أبو محمد حسـن ابن القطان بالتكريم والتقدير من طرف أبي

---

(١) علم العلل في المغرب، للدكتور إبراهيم بن الصديق، ص ٢١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٣.

حفص عمر المرتضى، أحد خلفاء الموحدين، وولي القضاء على عهده وله مؤلفات[١].

• ومن تلامذة ابن القطان: **الحافظ أبو عبد الله بن المواق محمد بن يحيى بن أبي بكر**: المراكشي النشأة، القرطبي الفاسي الأصل، قال فيه ابن عبد الملك: وكان فقيهاً حافظاً محدِّثاً مقيداً ضابطاً متقناً، نبيل الخط بارعه، ناقداً محققاً، ذاكراً أسماء الرجال وتواريخهم وأحوالهم، وله تعقب على كتاب شيخه أبي الحسن ابن القطان الموسوم بـ «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام».

ولأبي عبد الله أيضاً مصنفات غير ما ذكر؛ منها: «شيوخ الدارقطني» و«شرح مقدمة صحيح مسلم» ومقالات كثيرة في أغراض شتى حديثية وفقهية، وتنبيهات مفيدة، ووقفت على جملة من «شرح الموطأ» في غاية النبل وحسن الوضع...

استقضي ببلنسية وفاس، توفي سنة اثنتين وأربعين وستمئة[٢].

وقد ذكر صاحب «الرسالة المستطرفة» اسم الكتاب الذي تعقب فيه ابن المواق على كتاب شيخه: «بيان الوهم والإيهام» فقال: «وقد تعقَّب كتابه هذا في توهيمه لعبد الحق تلميذه الحافظ الناقد المحقق أبو عبد الله محمد ابن الإمام يحيى (ابن المواق) في كتاب سمّاه: «المآخذ الحفال السامية عن مآخذ الإهمال في شرح ما تضمنه كتاب بيان الوهم والإيهام من الإخلال والإغفال، وما انضاف إليه من تتميم وإكمال»؛ تعقُّباً ظهر فيه كما قال الشيخ القصَّار: إدراكه ونبله، وبراعة نقده.. إلا أنه تولَّى إخراجه من المبيضة ثم اخترمته المنية، ولم يبلغ من تكميله الأمنية، فتولى تكميل تخريجه مع زيادة تتمات، وكتب ما تركه المؤلف بياضاً: «أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد»[٣]

---

(١) ذكر بعض مؤلفاته الدكتور إبراهيم بن الصديق في كتابه: علم العلل في المغرب.

(٢) الإعلام بمن حل بمراكش: ١٤١/٣، نقلاً عن: الذيل والتكملة.

(٣) الرسالة المستطرفة لبيان كتب السنّة المشرفة، ص ١٧٨.

وذكر صاحب «كشف الظنون» أن كتاب «بغية النقّاد في أصول الحديث» للإمام الحافظ عبد الله بن المواق، وقد علمت أن اسمه محمد وكنيته أبو عبد الله[١].

وقد وصفه الحافظ العراقي بـ «الحافظ»[٢].

• ومن تلامذته أيضاً: **أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي**: حفيد القاضي عياض.

قال فيه ابن الزبير:«كان من عدول القضاة وجلّة سراتهم وأهل النزاهة فيهم... محبّاً في أهل العلم مقرِّباً لأصاغر الطلبة، ومكرماً لهم، ومعتنياً بهم، يحبِّب إليهم العلم والتمسُّك به، قرأ بسبتة وأسند بها، ورحل إلى الجزيرة الخضراء... وُلد سنة (٥٨٤هـ)، وتوفي بغرناطة سنة (٦٥٥هـ)»[٣]. وهو من شيوخ شيوخ ابن عبد الملك[٤].

• ومن تلامذته كذلك: **أبو عبد الله محمد بن السباني المعروف بابن الطراوة**: قال فيه صاحب «الذيل والتكملة»: «كان حافظاً للتواريخ على تبيان أنواعها، ذاكراً لها محاضراً بها... توفي بسجلماسة سنة (٦٥٩هـ)»[٥].

ومن الذين استجازهم ابن القطان ورووا عنه من غير أن يلقاهم:

• **أبو الحسن علي بن محمد بن علي الشاري السبتي**: قال عنه ابن الزبير: «إن جلّة المحدثين الأندلسيين أخذوا عنه»[٦].

---

(١) الأعلام: ١٤٣/٣.

(٢) انظر كتاب: التقييد والإيضاح، ص ٨٦.

(٣) الديباج المذهب، ص ٢٩٠، نقلاً عن ابن الزبير.

(٤) انظر ترجمة لابن عبد الملك في: الإعلام بمن حل بمراكش: ٢٤٠/٣.

(٥) الأعلام، للتعارجي، نقلاً عن: الذيل والتكملة: ١٤٨/٣.

(٦) صلة الصلة، ص ١٤٩.

وقال ابن عبد الملك: «كتب إليه مجيزاً ولم يلقه: أبو جعفر بن مضاء، وأبو الحسن بن القطان»[١].

وقائمة أسماء مَن روى عن ابن القطان طويلة لا يحصون، كما قال ابن عبد الملك: «في خلق لا يحصون كثرة...» نكتفي بهذا القدر منهم.

وقد عدّ الحافظ العراقي في «طرح التثريب» ابن الأبار من تلامذة ابن القطان؛ حيث قال: «أخذ عنه الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبار»[٢].

والغريب أن ابن الأبار نفسه لم يُشِرْ إلى هذه التلمذة في «التكملة»، وكذلك ابن عبد الملك، ولعل الحافظ العراقي عثر على هذه التلمذة في مؤلف انتهى إلى علماء المشرق، ولم يتم العثور عليه من طرق علماء المغرب[٣].

• ومن الذين أجازهم ابن القطان الحافظ **أبو بكر بن مسدي**؛ قال في «برنامجه» عن ابن القطان: «عاقت الفتن المدلهمة عن لقائه، وقد أجاز لي مروياته»[٤].

سادساً: مكانته العلمية:

بقيت شخصية ابن القطان مغمورة منذ عهود بعيدة رغم ما عرف به من سعة العلم وقوة الحفظ وكثرة الإنتاج في الأوساط العلمية، فهو لا يقلُّ عن الأعلام الذين ظفروا بالدراسة الواسعة.. وقد أدى الإغفال عن مثل هذه الشخصية المغربية العظيمة، إلى طمس الجانب العلميِّ الذي انتهى إليه المغاربة، وخصوصاً في علم الحديث، الذي يعتبر ابن القطان أحد أعلامه البارزين فيه

(١) الذيل والتكملة، مخطوط بالخزانة العامة: ٣٣/٣.
(٢) طرح التثريب في شرح التقريب، للحافظ العراقي: ٨٧/١.
(٣) علم العلل في المغرب، ص ٢١٧ وما بعدها.
(٤) تذكرة الحفّاظ: ١٤٠٧/٤، نقلاً عن: برنامج ابن مسدي.

روايـة ودراية.. وأصبح مـن المشهور لدى المشارقـة أن المغاربة لم يظهر لهم نجم في علم الحديث، وإنما انصبَّتْ دراساتهم على علم الفروع فقط.

ولذلـك وجـب على الباحـث المغربي أن يتَّجـه إلى تـراث أسلافه الكرام، ليقيم في ضوئه دراسات وبحوثاً، ويظهر من خلالها المكانة العلمية التي انتهى إليها المغاربة في جميع العلوم، ومنها علم الحديث.. والاهتمام بمثل شخصية ابـن القطـان يكشف النقاب عن حقيقة المغاربة في الميدانِ العلميِّ، وما خلّفه علماؤه الأمجاد من التراث الخالد.

وشخصيـة ابن القطان ظلَّت مجهولة عند العديـد من المهتمِّين بالتراجم والدراسات حتَّى إنَّ بعضهم يحسبه من حفّاظ المشرق.

والذيـن وقفـوا على إنتاجـه العلميِّ مـن علماء المشـرق كالحافـظ الذهبيِّ، والحافظ العراقيِّ، والحافظ ابن حجر، يربطون بين شخصيته وبين ذلك الإنتاج، ويعدُّونه من الحفّاظ المغاربة الذين اشتهروا في القرن السادس والسابع بالمشاركة والتطلُّع في جميع العلوم كالحديث والفقه والأصول والتاريخ والتفسير والعربية.

وقـد اهتم ابن عبد الملك في «الذيل والتكملـة» بإنتاجه العلميِّ، فقال بعد أن ذكـر عدداً من مؤلفاته: «إلى غيـر ذلك من المعلقات والفوائد في التفسير والحديث، والفقه وأصوله، والكلام والآداب، والتواريخ والأخبار».

وقـد وصفه ابن الأبار بقولـه: «وكان من أبصر النـاس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية»[١].

وأضـاف ابـن القاضي في «جذوة الاقتباس» إلى ما نقله عن ابن الأبار في ابن القطان: «مع التفنن في المعرفة والدراية»[٢].

---

(١) التكملة، طبعة مدريد، رقم (١٩٢٠).

(٢) جذوة الاقتباس، ص ٢٩٩.

وقال ابن الزبير (ت ٧٠٨هـ): «وكان ذاكراً للرجال والتاريخ، عارفاً بعلل الحديث، نقّاداً ماهراً»[١].

وقال ابن عبد الملك: «وكان ذاكراً للحديث، متبحِّراً في علومه، بصيراً بطرقه، عارفاً برجاله، عاكفاً على خدمته، مميزاً صحيحه من سقيمه، مثابراً على التلبس بالعلم وتقييده عمره، كتب بخطه على ضعفه الكثير، وعني بخدمة كتب بلغ فيها الغاية، منها نسخته بخطه من صحيح مسلم، والسنن لأبي داود وغيرها»[٢].

أما إذا رجعنا إلى ما قاله فيه علماء المشرق الذين اطَّلعوا على إنتاجه العلميِّ، فنجدهم يُضفون عليه كلَّ الصفات التي لم يظفر بها إلا القليل من العلماء الأفاضل، فهذا الحافظ جمال الدين بن مسدي يقول فيه ما نصُّه: «كان معروفاً بالحفظ والإتقان، ومن أئمة هذا الشأن»[٣].

وهذا الحافظ الذهبيُّ يصفه في «تذكرة الحفّاظ» بـ: «الحافظ العلاّمة الناقد قاضي الجماعة»، ويقول: «طالعت كتابه المسمى بـ «الوهم والإيهام» الذي وضعه على «الأحكام الكبرى» يدل على حفظه وقوة فهمه، لكنه تعنت في أحوال رجال فما أنصف، بحيث إنه أخذ يلين هشام بن عروة ونحوه»[٤].

وهذا أيضاً الحافظ العراقيُّ يقول فيه في كتابه «طرح التثريب»: «أحد الحفّاظ الأعلام، صاحب كتاب: بيان الوهم والإيهام»[٥].

---

(١) صلة الصلة، ص ١٣٢.

(٢) الذيل والتكملة: ٩/٨ ـ ١١، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

(٣) تذكرة الحفّاظ: ١٤٠٧/٤، نقلاً عن ابن مسدي.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) طرح التثريب: ٨٧/١.

وهذا كذلك الحافظ السيوطيُّ يترجم له في «طبقات الحفّاظ» ويصفه: بـ«الحافظ الناقد العلاّمة»[١].

إلى غير ذلك من الشهادات المستفيضة فيه، وكلها تؤكد قوة حفظه ومتانة علمه وتفننه فيه مع الثقة والأمانة، ولم يحز هذه الأوصاف إلا القليل من الحفّاظ الكبار كعلي ابن المديني ويحيى بن معين والبخاري وغيرهم.

سابعاً: إنتاجه العلمي:

إن إماماً كابن القطان، الذي تتلمذ لشيوخ كبار عُرفوا بسعة الاطلاع، وقوة الحفظ، وبراعة النقد، لا بد وأن يكون له إنتاجٌ علميٌّ كبير في كلِّ العلوم التي طلبها، واشتهر أمره فيها.

ولقد ذكر المترجمون لابن القطان ـ وخصوصاً ابن عبد الملك ـ قائمةً طويلةً من المؤلَّفات لم يعثر على معظمها حتَّى الآن، ولعلَّ بعضها يكون قد ضاع في حوادث المعتصم الموحدي مع عمِّه المأمون ـ كما يذكر صاحب «الاستقصاء»؛ حيث قال: «ولم يزل مع مغروره المعتصم في حركاته واضطراب أمره مع المأمون عمِّه إلى أن نجا المعتصم أمام عمِّه إلى سجلماسة، فأدركت أبا الحسن منيته مبطوناً، حسيراً على ما فقد من أهله وبنيه وكتبه وسائر ممتلكاته»[٢].

ونذكر من مؤلفاته ما يلي:

١ ـ كتاب «**بيان الوهم والإيهام، الواقعين في كتاب الأحكام**»: وهذا الكتاب يُعتبر من أشهر كتبه وأهمها على الإطلاق، إذ يشتمل على علم غزير في الحديث وعلله ورجاله برهن فيه على «حفظه وقوة فهمه»[٣] كما قال الحافظ

(١) طبقات الحفّاظ، للسيوطي، ص ٤٩٥، رقم (١٠٩٨).
(٢) الاستقصاء: ٢/٢٣٧.
(٣) تذكرة الحفّاظ: ٤/١٤٠٧.

الذهبي عنه، وفيه حكم على رتبة مئات الأحاديث من عشرات المصنفات، ودرس إسنادها ومتنها، وعرَّف بحال رواتها.

ومثل هذا المجهود العظيم لا يتأتَّى إلا لمتضلِّع في علوم الحديث بجميع فروعه، ولا نطيل في التعريف بهذا الكتاب، لأنه ليس من غرضنا، وقد أفاض شيخنا الدكتور إبراهيم بن الصديق في دراسته لهذا الكتاب، في أطروحته «علم العلل في المغرب»، من خلال كتاب «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام» لأبي الحسن ابن القطان الفاسي؛ فليرجع إليه.

٢ ـ «**الإقناع في مسائل الإجماع**»: ويطلق عليه بعضهم: «**مراتب الإجماع**»، أما صاحب «طبقات المالكية» فيسميه: «الإجماع».

وتكثر النقول عنه في كتب الفقه والخلاف، ومنه نسخة في قصر غاليوم الثاني بقرية بوتسدام، التي تبعد سبعة كيلومترات عن برلين الشرقية، تحت رقم (٩٥)، رأيتُ ذلك في قائمة المخطوطات التي أعدَّها الدكتور فوزي رئيس قسم الهندسة الميكانيكية بمصر، وجدتُ هذه القائمة عند الشيخ حمَّاد الأنصاري أستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.. وذكر لي أن الشيوعيين ضربوا الحصار الشديد على هذه المكتبة، بحيث يمنعون كلَّ باحثٍ إسلاميٍّ من الدخول إليها والاستفادة من نفائسها، وقد كتبتُ إلى المسؤولين عنها مراراً أسألهم عن كتاب «الإقناع في مسائل الإجماع» فلم ألقَ أي إجابة منهم، فتأكَّد لي ما ذكره فضيلة الشيخ حمَّاد الأنصاري!.. ونسأل الله أن يفكَّ عنها ذلك الحصار، حتى يتمكَّن الباحثون من الاستفادة من نفائسها الإسلامية.

وبالخزانة العامة بالرباط صورة من كتاب: «الإقناع في مسائل الإجماع» على الميكرو فيلم تحمل نفس الرقم الذي تحمله النسخة الموجودة بقصر غاليوم المشار إليها قبل، والظاهر أنها مصورة عن هذه النسخة.

وفي هذا الكتاب يقتصر ابن القطان على استعراض ما أجمع عليه العلماء في المسائل الاعتقادية والفقهية من غير تعليق منه أو تدخُّل، وكثيراً ما ينقل عن ابن عبد البر من كتاب «التمهيد» و«الاستذكار»، وعن ابن حزم من «مراتب الإجماع»، و«المحلى»، وعن الشافعي من «الرسالة»، وعن ابن المنذر وغيرهم، وقد طبع كما تقدم بتحقيق ودراسة وشرح الدكتور فاروق حمادة.

٣ ـ **كتاب «إحكام النظر في أحكام النظر»**: ولهذا الكتاب شهرته الكبيرة عند المحدثين والفقهاء، وهو هذا الكتاب.

٤ ـ **«رسالة في فضل يوم عاشوراء، والترغيب في الإنفاق فيه على الأهل»**: ومنها نسخة في خزانة ابن يوسف بمراكش، تضم نحو ثلاثين صفحة، تحدث فيها عن حديث: **«مَن وسّع على أهله وعياله يوم عاشوراء، وسّع الله عليه سائر سنته»** وحسنه.

وله مؤلفات أخرى كثيرة ذكر أغلبها ابن عبد الملك في كتابه «الذيل والتكملة»؛ منها:

٥ ـ **«نقع الغلل والفوائد والعلل في الكلام على أحاديث السنن لأبي داود»**.

٦ ـ **«البستان في أحكام الجنان»**: يقول ابن عبد الملك: «مجلدان متوسطان».

٧ ـ يذكر ابن عبد الملك أن له «كتاباً حافلاً جمع فيه الحديث الصحيح محذوف السند، جمعه من المسندات والمصنفات.. كمَّل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة في نحو عشر مجلدات»، ولم يذكر ابن عبد الملك اسم هذا الكتاب.

٨ ـ **«إنهاء البحث منتهاه، عن مغزى من أثبت القول بالقياس ومن نفاه»**.

٩ ـ «**النزع في القياس لمناضلة من سلك غير المهيع في إثبات القياس**»: يردُّ فيه على عالم اسمه: أبو علي الطوير، ذكر ذلك ابن عبد الملك.

١٠ ـ «**الردّ على أبي محمد بن حزم في كتاب المحلى**».

١١ ـ «**شيوخ الدارقطني**»: مجلد متوسط.

١٢ ـ «**تجريد من ذكره الخطيب في تاريخه من رجال الحديث بحكاية أو شعر**».

١٣ ـ «**تقريب الفتح القسي**».

١٤ ـ «**كتاب ما حاضر به الأمراء**»: مجلد متوسط.

١٥ ـ «**أسماء الخيل وأنسابها وأخبارها**»: مجلد متوسط.

١٦ ـ «**أبو قلمون**»: مجلدان ضخمان.

١٧ ـ «**مسائل من أصول الفقه**»: زعم أنه لم يذكرها الأصوليون في كتبهم.

١٨ ـ «**رسالة في الإمامة الكبرى**».

١٩ ـ «**رسالة في القراءة خلف الإمام**».

٢٠ ـ «**رسالة في الوصية للوارث**».

٢١ ـ «**رسالة في المنع من إلقاء التفث في عشر ذي الحجة للمضحي**».

٢٢ ـ «**رسالة في منع المجتهد من تقليد المحدث في تصحيح الحديث لدى العمل**».

٢٣ ـ «**رسالة في الرهن يوضع على يد أمين فيعتدي فيه**».

٢٤ ـ «**رسالة في مشاطرة العمّال**».

٢٥ ـ «**رسالة في الطلاق الثلاث**».

٢٦ - «رسالة في الأيمان اللازمة».

٢٧ - «رسالة في الختان».

٢٨ - «رسالة في التسعير».

٢٩ - « رسالة في معاملة الكافر».

٣٠ - «المقالة المعقولة في حكم فتوى الميت والفتوى المنقولة».

٣١ - «رسالة في الأوزان والمكاييل».

٣٢ - «رسالة في حث الإمام على القعود لسماع مظالم الرعية».

٣٣ - «مقالة في تبيين التناسب بين قول النبي ﷺ: «ويتوب الله على مَن تاب»، وما قبله من الحديث».

٣٤ - «مقالة في تفسير قول المحدثين في الحديث: إنه حسن».

٣٥ - «رسالة في تحريم التساب».

٣٦ - «مقالة في الوصية للجنين».

٣٧ - «أحاديث في فضل التلاوة والذكر».

٣٨ - «برنامج شيوخه»[1].

هذه مجموعة من مؤلفاته تُظهر لنا قيمته العلمية، ومشاركته الواسعة، وقد اعتمدها المحدثون والفقهاء من بعده.

ثامناً: المناصب العلمية التي تبوَّأها، وحظوته عند الموحدين:

لقد بوَّأه علمُه الغزيرُ مكانةً مرموقة بين أقرانه وعلماء عصره، وحاز قصب السبق عند العديد من ملوك الموحدين، وذاع صيتُه في الآفاق العلمية، وأعجب

(١) انظر: الذيل والتكملة، السفر الثامن: ١/١٦٧ ـ ١٦٨.

بـه كلُّ مـن سمعه أو اطلع على إنتاجه العلمي، وحـلاّه بآيات من الثناء العاطر والشكر المتواصل.

وقد أهَّله اطلاعه الواسع على علوم الحديث الشريف، لأن يكون رأس طلبة العلم بمراكش، وهو الذي يُعرف إلى عهد قريب بـ «سلطان الطلبة»، وكان هذا المنصب على عهد الموحدين من أرفع المناصب العلمية، لا يتقلدها إلا مَن بلغ مرتبة الإمامة في الحديث والفقه والأصول، وقد كان ابن القطان كذلك... يقول جمال الدين بن مسدي: «كان شيخ شيوخ أهل العلم في الدولة المومنية»[١].

بالإضافة إلى ما كان يحوزه من التقدير والاحترام من طرف الجميع، يؤكِّد هذا ابـن عبد الملـك عندما يقـول: «كان معظَّماً عند الخاصـة والعامة من آل دولة عبد المؤمن»[٢].

ولمـا كان ابـن القطان هكذا، قرَّبـه بعضُ ملوك الموحِّديـن إليهم وجعلوه مـن أخصِّهم، ونال بخدمتهم دنيا عريضة، وخصوصاً منهم: يعقوب المنصور، وابنـه الناصر، فالمستنصر بن الناصر، وأبو محمد عبد الواحد أخو المنصور، وأبو زكرياء المعتصم...

ويوضِّـح هذا ابـن عبد الملك فيقول: «وكان معظَّماً عنـد الخاصة والعامة، مـن آل دولـة بني عبد المؤمن، حظي كثيراً عند المنصور منهم، فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر، فأبي محمد عبد الواحد أخي المنصور، ثم أبي زكرياء المعتصم أبي الناصر، حتى كان رئيس الطلبة؛ مصروفة إليه الخطط المهمة، مرجوعاً إليه في الفتوى، وكان عند المنصور منهم كثيراً...».

ثـم يذكر الخطط التي انتهت إليه على عهد الناصر، فيقول: «إنه في أيام

---

(١) تذكرة الحفّاظ: ١٤٠٧/٤.

(٢) الذيل والتكملة ـ علم العلل في المغرب: ٢١٩/١.

الناصـر انتهت خطط أبي الحسن بن القطـان نحو ثلاث عشرة خطة، كلها أو جلـها جليل مفيـد، وكل واحد منها إنما كان يعين لها أكثـر الموسومين بالعلم قدراً وأبعدهم صيتاً».

ويذكـر ابن عبد الملك أن من جملـة الخطط التي انتهت إلى ابن القطان: المحافظة على مكتبة قصر الموحدين.

بالإضافـة إلـى الحلقات العلمية التي كان يعقدها فـي قصر الخلافة ودار الطلبة، ويحضرها الأمراء وكبار الشخصيات، وعدد هائل من الشيوخ والطلبة، برهن فيها على قدرته العلمية وخصوصاً فيما يتعلق بعلم الحديث بسائر فروعه.

ويذكـر بعضُ المترجمين له: أن من المهام التي تـولاَّها: قضاء الجماعة؛ ذكـر ابن مسدي أنه: «ولـي قضاء الجماعة في أثناء تقلـب الدولة»[1]، وكذلك وصفـه الذهبي في «تذكرة الحفّـاظ» لما قاله عنه: «الحافـظ العلاّمة الناقد، قاضي الجماعة»[2].

وقـد استبعـد شيخنـا الدكتور إبراهيم بـن الصديق فـي أطروحته «علم العلـل فـي المغـرب» أن يكون ابن القطـان قد ولي هذه المهمـة، وعلل ذلك، وذكر أن ما تولاه في هذا المضمار هو قضاء الجند للمعتصم بسجلماسة في أخريـات حياته، وهذا ما يشير إليه ابن عبد الملك بقوله: «لما دخل المأمون مراكش علـى الوجه الشنيع الذي دخلها عليه، فصـل المعتصم من ظاهرها فـي فل أصحابه وشيعتـه، وكان منهم أبو الحسن بن القطـان متولياً القضاء بين حزبه».

وهذه المهام التي تقلَّب فيها ابن القطان على عهد الموحِّدين أكسبته أموالاً

---

(١) تذكرة الحفّاظ: ١٤٠٧/٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

طائلـة ودنيا عظيمة على حدٍّ تعبيـر ابن الأبار، واتخذ لنفسه ضيعة خارج باب فاس، وكان يتردد عليها باستمرار.

ويـروي لنا ابن عبد الملك عن الحسن ولد ابـن القطان أبياتاً يصف فيها أبوه نهراً بضيعته تلك، كما يروي عنه أبياتاً شعرية قالها أبو الحسن لما عثرت به بغلته، عندما كان متوجِّهاً إلى ضيعته، وكان معه: أبو عبد الله بن المناصف الذي قال: ما بالها عثرت وما بها قُلّبة؟..

فأجابه ابن القطان بقوله:

لم تعثر البغلةُ السفواءُ إذ عثرتْ مـن ضعفِ أيـدٍ ولا من أنَّهـا خَرِقَهْ

لكنَّهـا غَشيتْ من نـورِ ما حَمَلَتْ مـن العلـومِ فخـرَّتْ تحتَـهُ صَعِقَـهْ

والذين ترجموا لابن القطان متفقون على أنه لم يظفر بهذا الغنى والسعة في المال إلا بعد اتصاله بالموحدين، ونال من عطاءاتهم الشيء الكثير.

والمعـروف عن ملوك الموحدين أنهم كانوا يُكرمون العلماء، ويُغدقون عليهم العطـاء من غير حـدود، وخاصَّة منـهم المنصور الذي كان يقـرِّب إليه كلَّ من اشتـهر مـن علماء الحديـث ويبوِّئه المكانـة الرفيعة، وطرد فقـهاء الفروع وأمر بإحـراق جميع كتـب الفروع بعد تجريدها من القرآن والسنَّة!.. وكان هذا المبدأ الـذي أقامت عليه الدولة الموحدية سياستـها الدينية، مغايراً للمبدأ الذي كانت عليه الدولة المرابطية، حيث كانت تجلُّ علماء الفروع، وتصرف إليهم العطاءات، وتسند إليهم الخطط، فانقلب الأمر على عهد الموحدين، وصار العلم المبجل هو علـم الحديث، ولذلك نـال من معروفهم كلُّ مَن اشتهر فـي علم الحديث، وكان ابـن القطان من بينـهم؛ فنال بخدمتهم دنيا عريضـة، وكان ذلك أحد الأسباب المباشـرة في الحقد عليـه والكيد له عند «العادل» أحد ملـوك الموحدين، حتى همّ العادل بإلقاء القبض عليه، لولا أنه راعى ما قدّمه من الخدمات الجليلة إلى جـده وأبيـه وأخيه وعمه، كما كان ذلك أيضاً سبباً فـي الوحشة التي وقعتْ بينه

وبين العادل، ومنعه من الدخول إلى القصر والتردد عليه.. ويشير ابن مسدي إلى هذا فيقول: «نقمت عليه أغراض انتهكت فيها أعراض»[١].

وقد لُمز ابنُ القطان من طرف الحاقدين عليه، وأُلصقت بشخصه تهم كثيرة لا مبرر لها، وقد سجلها ابن عبد الملك في كتابه «الذيل والتكملة»، واعتمد فيها على أسلوب التفخيم والتعظيم والإبهام، لا على التفسير والحجة، وهذا ما جعل العلماء الحفَّاظ والنقَّاد الكبار، كالحافظ الذهبي والسيوطي والعراقي وابن حجر ـ وكلهم ترجم لابن القطان ـ لا يلتفتون إليها رغم اطلاعهم على كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك، واعتمادهم عليه في كثير من النقول.

وإذا رجعنا إلى كتاب «التكملة» لابن الأبار نجده خالياً من التهم التي حشدها ابن عبد الملك في ترجمته لابن القطان، ولم يسجل فيه عنه إلا ما يثبت عدالته.. والمعروف عن ابن الأبار هو تشدُّده في نقد الرجال، إذ لم يسلم من نقده إلا من كان سالماً بالفعل مما يجرح به، كما أنه كان شديد التحرِّي في اختيار الشيوخ الذين يروي عنهم، وقد سبق أن ذكرنا أن الحافظ العراقي ذكره في تلامذة ابن القطان.. وما روى عنه إلا أنه كان من الشيوخ الذين ارتضاهم واطمأن إلى عدالتهم وثقتهم وحفظهم.

والظاهر أن جميع التُّهم الموجهة لابن القطان، وقد سجَّلها ابن عبد الملك في كتابه «الذيل والتكملة» من غير تثبُّت منه ولا تمحيص، إنما هي صادرة عن أولئك الذين لم يسعفهم الحظ لأن يفوزوا بما فاز به ابن القطان عند ملوك الموحدين، وهي لا تعدو أن تكون من التهم التي وجهها الحسّاد إلى الأئمة العظام كالإمام مالك وعلي بن المديني والبخاري وغيرهم.

* * *

(١) تذكرة الحفَّاظ: ١٤٠٧/٤.